النواحي البلاغية في الأمثال العربية

الدكتور وان حسن وان مت من أعضاء هيئة التدريس،
قسم اللغة العربية ولغات الشرق الأوسط،
جامعة مالايا، كوالا لومبور ٥٠٦٠٣ ماليزيا

مقدمة

المثل جملة من القول تشتهر فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها. والمثل أحد قسمي الاستعارة التمثيلية تكون مجال اهتمام علماء "البيان" وتعد الأمثال من الفنون اللغوية والأدبية، وقد اتسعت صدور المعجمات العربية القديمة لذكرها وضبطها وتفسيرها ومنها "مجمع الأمثال" للميداني و"التمثيل والمحاضرة" للثعالبي و"المستقصى في أمثال العرب" للزمخشري وغيرها من كتب الأمثال. تعتبر الأمثال أيضاً من الأدب الشعبي، إذ يشتمل هذا الأدب على السير الشعبية، وعلى الأمثال أو الأقوال الموجزة التي تتضمن حكماً بليغة أو تجارب إنسانية مفيدة أو تعطي قواعد للتصرف والسلوك. ولقد غدت الأمثال بأنواعها كما أسلفنا موضوع دراسات نفسية واجتماعية وفلسفية ولغوية وتاريخية سواء كانت قديمة مسجلة باللغة العربية الفصحى أو عامية متداولة في اللهجات. وأما الدراسة التي هي بين أيدينا الآن، فهي تركز تركيزا خاصا على الأمثال العربية الفصحي، ومنها إلي النواحي البلاغية. وتهدف البحث إلى إثبات ولإظهار جمال اللغة العربية التي تحويها من ألفاظ وعبارات وجمل وأساليب والتي بشأنها تؤثر تأثيرا إيجابيا على نفوس العامة والخاصة في توجيه سلوكهم نحو الانقياد بالإيجابيات وترك السلبيات من أمور معيشتهم ودينهم ودنياهم.

١- التعريف بالمثل

يطلق المثل في اللغة على الشيء الذي يضرب لشيء مثلاً، فيجعل مثله، يقال تمثّل فلان: ضَرَبَ مثلاً، وتمثّل بالشيء ضربه مثلاً، والمِثْلُ والمَثَلُ كالمَثَلِ والجمع أمثال ، قال تعالى: (ولله المــثَــلْ الأَعْلَى) (النحل/٦٠)، يريد أنه سبحانه أمر عباده بتوحيده ونفي كل إله سواه، فالمثل الأعلى هنا التوحيد الخالص، والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها.

ومن معاني المثل في اللغة أيضاً المدح والثناء، ومنه قالوا: مَثُلَ الرجل يَمْثُلُ مَثَالَةً إذا فَضُلَ وَحَسُنَ حاله، فالمثالة حسن الحال، والمَثِيلُ: الرجل الفاضل، والأَمْثَلُ، الأفضل، وهو أَمْثَلُ قومه أي أفضلهم، وفلان أمثل بني فلان، أدناهم إلى الخير، وهؤلاء أماثل القوم أي خيارهم.

نجد أبا إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي قد عرف المثل بقوله: المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه، حتى ابتذلوه فيما بينهم وفاهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتنع من الدر، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به عن الكرب والمكربة، وهو من أبلغ الحكمة، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة.

ويقول السيوطي في تعريف المثل نقلا عن المرزوقي صاحب كتاب «شرح الفصيح» إنه: جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها، فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها، من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام.

فنجد الميداني قد استهل كتابه «مجمع الأمثال» بعرض آراء بعض أهل اللغة والأدب والكلام، إذ يذكر رأي المبرد قائلا: «المثل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه. فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول، كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا *** وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد "عرقوب" علم لكل ما لا يصح من المواعيد.

وينتقل الميداني بعد ذلك إلى عرض رأي كل من إبراهيم النظام وابن المقفع قائلا: وقال إبراهيم النظام: يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة. وقال ابن المقفع: إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث.

ويختم الميداني مقدمة المجمع برأي شخصي، إذ يقول: أربعة أحرف سمع فيها فعل وفعل، وهي مثل ومثل، وشبه وشبه، وبدل وبدل، ونكل ونكل، فمثل الشيء ومثله وشبهه وشبهه: ما يماثله ويشابهه قدرا وصفة. فالمثل ما يمثل به الشيء : أي يشبه. فصار المثل اسما مصرحا لهذا الذي يضرب ثم يرد إلى أصله الذي كان له من الصفة، فيقال: مثلك ومثل فلان: أي صفتك وصفته، ومنه قوله تعالى :﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها، ولشدة امتزاج معنى الصفة به صح أن يقال: جعلت زيدا مثلا والقوم أمثالا، ومنه قوله تعالى : ﴿ساء مثلا القوم﴾ جعل القوم أنفسهم مثلا في أحد القولين، والله أعلم.

وتسمى الأمثال حقيقية إن كان لها أصل معروف نقلت عنه وسيقت له، وفرضية إن كانت تمثل على لسان حيوان أو نبات أو جماد، مثل: "في بيته يؤتى الحكم" و"كيف أعاودك وهذا أثر فأسك"، والأول محكى على لسان الضب، والثاني على لسان الحية.

وتكثر الفرضية في الأيام التي يكثر فيها الجور والاستبداد، والتضييق على الهداة والمرشدين، فيضطرون إليها للوصول إلى أغراضهم، مع الأمن على حياتهم، وعلى ما فيها من الترويح عن الخاطر، ولطف المدخل، وجمال الفكاهة المطوية في تضاعيفها النصيحة، وذلك أعمق في النفس وأدعى إلى الاتعاظ.

الأمثال مرآة ترى فيها صور الأمم وقد مضت، فنقف على أخلاقها وقد انقضت، وهي ميزان يوزن به رقي الشعوب وانحطاطها، وسعادتها وشقاؤها، وأدبها ولغتها، ولقد أكثر العرب منها فلم يتركوا بابا إلا لجوه، ولا طريقا إلا سلكوه. وقد أفردها العلماء بالتأليف. أقدم الأمثال (على ما نعلم) أمثال لقمان الحكيم. (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، تأليف: الشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مصطفى عناني، دار المعارف بمصر.)

٢- التعريف بالبلاغة العربية

البلاغة هي أحد علوم اللغة العربية، وهو اسم مشتق من فعل بلغ بمعنى إدراك الغاية أو الوصول إلى النهاية .فالبلاغة تدل في اللغة على إيصال معنى الخطاب كاملا إلى المتلقي، سواء أكان سامعا أم قارئا. فالإنسان حينما يمتلك البلاغة يستطيع إيصال المعنى إلى المستمع بإيجاز ويؤثر عليه أيضا فالبلاغة لها أهمية في

إلقاء الخطب والمحاضرات. ووصفها النبي محمد في قوله :إن من البيان لسحرا أي إن من البلاغة لسحرا.

يقول ابن الأثير : مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الأفكار المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها. والدارس لعلم البلاغة يجده ينقسم إلى ثلاثة أقسام، علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع.

ويختص علم البيان بعنصري العاطفة الخيالية معا -لأن الخيال وليد العاطفة- وقد سمي علم البيان لأنه يساعدنا على زيادة تبيين المعني وتوضيحه وزيادة التعبير عن العاطفة والوجدان.

ويختص علم المعاني بعنصر المعاني والأفكار، فهو يرشدنا إلى اختيار التركيب اللغوي المناسب للموقف، كما يرشدنا إلى جعل الصورة اللفظية أقرب ما تكون دلالة على الفكرة التي تخطر في أذهاننا، وهو لا يقتصر على البحث في كل جملة مفردة على حدة، ولكنه يمد نطاق بحثه إلي علاقة كل جملة بالأخرى، وإلي النص كله بوصفه تعبيرا متصلا عن موقف واحد، إذ أرشدنا إلى ما يسمي: الإيجاز والإطناب، والفصل والوصل حسبما يقتضيه مثل الاستعارة والمجاز المرسل والتشبيه والكناية وأسلوب القصر.

ويختص علم البديع بعنصر الصياغة، فهو يعمل على حسن تنسيق الكلام حتي يجيء بديعا، من خلال حسن تنظيم الجمل والكلمات، مستخدما ما يسمي بالمحسنات البديعة – سواء اللفظي منها أو المعنوي-. وإذا نظرنا إلى تاريخ وضع العلوم العربية، نجد أن معظمها قد وضعت قواعده، وأرسيت أصوله في

القرون الأولى من الإسلام، وألفت العديدة في فن التفسير والنحو والتصريف والفقه وغيرها من فروع المعرفة، وكانت البلاغة من أبطأ الفنون العربية في التدوين والاستقلال كعلم منفرد له قواعده وأصوله، لأن المسائل كانت متفرقة بين بطون الكتب، كما كانت مصطلحاتها غير واضحة بالصور المطلوبة. ولكن ليس معنى هذا إنها كانت مجهولة أو مهملة من الباحثين، إلا أنها كانت موجودة بصورة مستقلة.

٣- الصلة بين البلاغة والمثل

مما لا شك فيه أن سائر فنون الكلام نشأت أول ما نشأت مشافهة، فالشعر بدأ مشافهة وتناقله الناس وأعجبوا بموسيقاه وحكموا عليه من خلالها، وتأثرهم كان يبدأ بطربهم لإنشاد الشعر وسماعه، كذلك كان حال الخطابة ومختلف الفنون الأدبية، والمثل واحد من هذه الفنون.

وذكر أن البلاغة العربية - وهي ما ارتبط بنقد الأدب - تؤسس أول ما تؤسس لبلاغة الاتصال الأدبي الشفهي، ويأتي في مقدمة هذا التأسيس معالجة الصوت ومردود ذلك إرسالاً واستقبالاً.

ونحن في موضوع البلاغة ومع فن المثل، ولأن الصوت كما ورد في القول السابق هو الذي يجب التركيز عليه في الجانب الشفاهي، فإننا سوف نتناول الجانب الصوتي وتأثيره في تداول الأمثال، لأن المشافهة بالدرجة الأولى تعني إرسال الصوت واستقباله، أي هي عملية تجري بين اثنين، أحدهما مرسل والآخر مستقبل من أجل تحقيق غرض هو إيصال الرسالة والتي هي المثل.

إن حاسة السمع وأداتها الأذن هي أول ما تدرك الصوت عند إطلاقه، ولأن الأمثال العربية كانت تطلق مشافهة، فهي عبارة عن تتالٍ لمجموعة من الأصوات بسمعها العربي، ويعرف بعد سماعه إياها معناها الذي يريد صاحبها إيصاله من خلال إطلاقه لها.

ولأن العربي في ذلك الوقت يعايش الظروف التي نشأ فيها المثل، فهو بالضرورة يسهل عليه فهم معناه ومعرفة قصته الأصلية، بالتالي استعماله في كل موقف شابه ذلك الموقف أو قاربه، وبفعل أن عدداً من الناس قد يسمعون هذا المثل في كل مرة يطلق فيها، فهو سوف يشيع ويعرف ويتداول لكن هذا التداول – بالطبع – لن يتحقق هكذا إنما هو نتاج عوامل متعددة تساهم فيه.

إن المثل بطبيعة الحال يحمل مضموناً قيّماً – في الغالب – يدل على قصته الأصلية، ويقصد به إعطاء العبرة والاعتبار للموقف، لكن هذا الإدراك للمعنى الذي يحتويه المثل لا يتحقق إلا بعد سماع المثل ولن يكون هذا المضمون الوحيد الذي يرجع إليه ذيوع المثل وتداوله بين الناس، لأن المثل من جهة أخرى – في مقابل هذا المعنى – يتم بالسلاسة والوضوح.

فضلاً عن ذلك فالمثل يتسم بجانب صوتي عند إطلاقه، بتوافق نهاية كلماته خاصة إذا تكوّن المثل من شطرين فيما سمي بلاغياً بالسجع في النثر والتصريع في الشعر، كذلك في توافق لفظتين نطقاً واختلافهما معنىً فيما سمي بالجناس، وقد أدرك العرب هذه الصور البلاغية قبل تدوين البلاغة بفضل ما كانوا يتميزون به من سمع ذواق يطرب للجميل من الألفاظ ويحس نغمه.

والعربي سواء كان مطلقاً للمثل أو متلقياً له كفيل بهذا الجانب البلاغي الجميل، فقول العرب مثلاً: (عش رجباً، تر عجباً)، يحمل موسيقى صادرة عن تناغم مصاحب لنطقه بفضل توافق نهايتي شطري المثل المفصولين بالفاصلة (عش رجباً، تر عجباً)، ثم بعد تحويل هذا التتالي الصوتي إلى كتابة نجد أن (رجباً وعجباً) يشكلان جناساً ناقصاً لتوافقهما في أكثر عدد الحروف المكونة لكلتا الكلمتين، وهذا التحويل من الصوتي إلى الحرفي، ومن السماع إلى البصر، ومن المشافهة إلى الكتابة، ذكره صاحب البلاغة.

فالكلمة المنطوقة لها – حتماً – أداء صوتي، من علو وانخفاض ونبر وتنغيم وغير ذلك، وحين تكتب هذه الكلمة فإنها تفقد هذا الأداء، الذي قد يحاول الكاتب تعويضه أو الدلالة عليه. وهذا ما يدل عليه صوت النهايتين (...رجباً...عجباً)، وما يظهر في كتابة (رجباً – عجباً) من حيث نوع الحروف وترتيبها، واختلاف معنى الكلمتين أي الجناس الناقص، وهذا ما يبدو واضحاً في تركيب المثل، لأن الأمثال من الكلام الذي تكثر فيه الأسجاع، وربما كان ذلك راجعاً لما عرف عن العرب من قول الأسجاع قديماً أو ما عرف بسجع الكهان، فطبعوا به أمثالهم وتذوقوا من خلاله أمثال غيرهم.

وفضلاً عن الجانب الصوتي، ودوره في شيوع الأمثال وتداولها نضيف عنصراً آخر أو صفة أخرى للأمثال وتظهر في المشافهة كما تظهر في الكتابة وبإمكاننا تصنيفها أو ضمها للجانب الصوتي أيضاً حين تقسيم المثل –في غالب الأحيان – إلى شطرين يساوي الواحد منهما الآخر من حيث عدد الألفاظ وترتيبها ومقابلتها لبعضها بعضاً من حيث توافق الحروف وتآلفها، فقول العرب مثلاً (أول العي الاختلاط وأسوأ القول الإفراط) يتساوى شطراه في عدد الألفاظ

ونوعها وحركتها (أول / أسوأ (،) العيّ / القول (،) الإفراط / الاختلاط)، وهو في ذلك يشبه الشعر في وزنه وتفعيلاته، مما سهّل تداوله وحفظه وشيوعه بين العرب الذين ألفوا قافية الشعر ووزنه، والنظم في مختلف بحوره.

فضلاً عن ذلك فقد ساهم في شيوع المثل في تلك الفترة عامل آخر يخص الظروف التي نشأت فيها الأمثال وانتشرت ضمنها، لأن العرب هم من أنتجوا الأمثال وتداولوها، فهي خير معبر عن شتى أمور حياتهم.

ثم هي أحد فنونهم – إلى جانب الشعر – التي صورت واقعهم، فهي ترتبط أشد الارتباط بحياتهم، فكل لفظ من ألفاظها يعني جزءاً أو عنصراً من عناصر حياتهم الاجتماعية، تتصل اتصالاً مباشراً بواقع معيشتهم، فكل مثل هو موقف لفرد من أفراد هذا المجتمع العربي إزاء حادث حياتي تعرض له في يوم من الأيام، فتداوله غيره وشاع بين الناس، وضربوه في مختلف المواقف.

إن التداول في مفهومه الواسع يعني الشيوع والذيوع ويرتبط أكثر ما يرتبط بالاستعمال الفعلي للشيء، فتداول المثل يعني دورانه والنطق به والتمثل بعباراته واستحضاره، وإذا عدنا إلى فترة المشافهة أمكننا – فيما أحسب – إحصاء ثلاثة أصناف لهذا التداول بحسب مجالات هذا التداول (الحياة اليومية، الشعر، الخطابة)

٤– بلاغة التمثيل في الاستعارة التمثيلية

بعد أن استعرضنا مفهوم وعلاقة بين البلاغة والمثل، نتوصل إلى مفهوم الاستعارة التمثيلية؛ فنورد مفهومها لدى عدد من البلاغيين السابقين والأدباء،

من مثل: عبد القاهر الجرجاني الذي لم يوردها تحت هذا العنوان؛ أي لم يرد في كتابيه: (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) مصطلح الاستعارة التمثيلية، إلا أنه تحدث عنها في عدة مواقع، وتحت عناوين مختلفة، فيسميها التمثيل بالاستعارة، يقول " :وأمّا التمثيل الذي يكون مجازا لمجيئك به على حدّ الاستعارة، فمثاله قولك للرجل يتردّد في الشيء بين فعله وتركه: "أراك تقدم رجلا وتؤخر آخرى." وفي كتاب المطول للتفتازاني، وهو شرح تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي، نجد فيه الاستعارة التمثيلية تحت عنوان المجاز المركب، لكنه لم يوردها بهذا المسمى وإنما عرفها بالتمثيل على سبيل الاستعارة، فيبين أنها تختلف عن الاستعارة في المفرد بأن وجه الشبه منتزع من متعدد" وحاصله أن تشبه إحدى الصورتين المنتزعتين من متعدد بالأخرى، ثم يدعي أن الصورة المشبهة من جنس الصورة المشبه بها، فيطلق على الصورة المشبهة اللفظ الدال بالمطابقة على الصورة المشبه بها"، ويمثل على ذلك بعبارة "إني أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فيجري فيها الاستعارة التمثيلية ثم يضيف "وهذا المجاز المركب يسمى التمثيل؛ لأن وجهه منتزع من متعدد على سبيل الاستعارة؛ لأنه قد ذكر المشبه به، وأريد المشبه وترك ذكر المشبه بالكلية، كما هو طريق الاستعارة.

والاستعارة التمثيلية في جواهر البلاغة: "تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي، بحيث يكون كل من المشبه والمشبه به هيئة منتزعة من متعدد، وذلك بأن تشبّه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بأخرى ثم ندخل المشبّه في صورة المشبه بها، مبالغة في التشبيه ...نحو: الصّيف ضَيَّعتِ اللبن. يضرب لمن فرط في تحصيل أمر في زمن يمكنه الحصول عليه فيه، ثم طلبه في زمن لا يمكنه الحصول عليه فيه."

وبالمعنى السابق نفسه، نجدها عند الميداني: "استعارة يكون اللفظ المستعار فيها لفظا مركبا، وهذا اللفظ المركب يستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح به التخاطب، ... وقد يطلق عليه الاستعارة على سبيل التمثيل أو نحو ذلك من عبارات، وهذه الاستعارة يستعملها الناس في مخاطباتهم وأمثالهم الدارجة، في فصيح الكلام العربي، وفي اللسان العاميّ الذي يتخاطب عامة الناس به، ويستعمل أيضا في غير العربية من اللغات الإنسانية الأخرى. فمن العامي قول الناس إذا رأوا صاحب صنعة أو مهنة يهمل أشياءه الخاصة التي يصنع مثلها لغيره بإتقان: باب النجار مخّلع، أو السكافي حافي والحايك عريان." وبذلك نستطيع القول: إن الاستعارة التمثيلية تشبيه حالة بحالة أخرى، حذف المشبه مبالغة في التشبيه وبقي المشبه به، مثال ذلك قولنا لمن يجهد نفسه في أعمال لا فائدة منها، ولا أثرها: أنت ترقم على الماء. فحذفنا المشبه وهو حال المخاطب وما يقوم به من أعمال، وبقي المشبه به وهو حال من يرقم على الماء لا يستفيد من عمله شيئا، ولا يترك أي أثر على الماء، وفي ذلك إيجاز في اللفظ، واكتظاظ في المعنى ومبالغة في التشبيه، وإيضاح للفكرة.

والاستعارة التمثيلية يستخدمها الناس كافة على اختلاف أعمارهم، وثقافاتهم، وبيئاتهم، يتمثلون بها فيما يعرض لهم من أحداث وما يمرون به من مواقف، ويبقى الاختلاف في العبارات التمثيلية المستخدمة، فكلّ يستخدم ما يناسب ثقافته وبيئته، ومن الطبيعي أن تسمو بعض العبارات التمثيلية بما فيها من روعة الألفاظ وجودة السبك وفضل الصياغة.

وما وضحناه فيما سبق هو أن الاستعارة التمثيلية تتكون منها المثل ويتكون المثل أي الأمثال من الاستعارة التمثيلية، ويري البعض أنهما شيئان متماثلان مع بعض الفروق.

٥- بلاغة الأمثال العربية

إن ضرب الأمثال تأتي على أساليب كثيرة. ومن خلال ضرب الأمثال بأساليب متنوعة تظهر من خلالها بلاغتها من نواح بلاغية عديدة.

قبل أن نعرض شيئا من بلاغة الأمثال العربية أود أن أقدم بعض الأشياء التي لها صلة وثيقة بالموضوع، بل أنها عبارة عن وجهين للعملة الواحدة إلا وهي بلاغة الكلام. فالأمثال جزء من الكلام المنطوق، والأمثال العربية جزء لا يتجزأ من الكلام العربي واللغة العربية.

بلاغة الكلام عبارة عن: أن يكون الكلام مطابقاً لما يقتضيه حال الخطاب، مع فصاحة ألفاظ مفرداته ومركباته، فلو تكلم في حال الفرح مثل ما يتكلم في حال الحزن، أو العكس، أو تكلم في حال الفرح بكلام يتكلم به في هذه الحال لكن كانت الألفاظ غير فصيحة، لا يسمى الكلام بليغاً.

ثم إن الأمر المقتضى للإتيان بالكلام على كيفية مّا، يسمى:

١- مقاماً باعتبار حلول الكلام فيه.
٢- حالاً باعتبار حالة المخاطب أو المتكلم أو نحوهما.

وإلقاء الكلام على هذه الصورة التي اقتضاها الحال يسمى مقتضى فقولهم: (مقتضى الحال) أو (مقتضى المقام) بمعنى الكيفية التي اقتضاها الحال أو المقام.

مثلاً: يقال عند كون الفاعل نكرة، حين يتطلب المقام التنكير: هذا الكلام مطابق لمقتضى الحال.

إذاً: فالحال والمقام شيء واحد، وإنما الاختلاف بالاعتبار.

بلاغة المتكلم عبارة عن: ملكة في النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ، بحيث يكون مطابقاً لمقتضى الحال، فصيحاً.

وقد عرّف ابن المعتز الكلام البليغ بكلام بليغ، فقال: ابلغ الكلام: ما حسن إيجاده، وقلّ مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه.

وكما بينته في البداية أن الأمثال العربية ضربت باستخدام اساليب عديدة. وبهذه الأساليب ارتقت وتميزت الأمثال العربية على ما دون سواها من الأمثال الأجنية بل ارتقت وتميزت أساليب الأمثال العربية عن الأساليب العربية الأخرى.
وبهذا الصدد نقدم البعض منها والتي تكون في الأغلب الأعم تمتاز الأمثال العربية عن غيرها من الأساليب:

١- إنها أساليب عربية خالصة، تنبت في البيئة العربية فاحتفظت بصيغتها الصافية الخالصة.

منها هذا المثل: "أفرع بالظبي وفي المعزى دثر". يقال أفرع اذا ذبح الفرع أي أول ولد تنتجه الناقة، كان الجاهليون يذبحونه لآلهتهم يتبركون بذلك. وفي الحديث "لافرع ولا عتيرة" والعتيرة: شاة كان الجاهليون يذبحونها لآلهتهم في رجب. وفيما يتعلق بكلمة المثل: "دثر" يقال: عكر دثر أي كثير. ومال دثر يعني مال كثير. ومعنى المثل: إنه

يتقرب إلى الآهه بذبح االظبي مع أنه يملك أغناما كثيرة. ويضرب المثل لمن له اخوان كثير ولكنه استعان بالآخرين.

٢- إنها أساليب متنوعة الأداء، فمرة هي أسلوب خبري، جملة اسمية أو فعلية، ومرة هي أسلوب إنشائي، فيه الاستفهام والتعجب أو الأمر أو النهي. وتتضح بنماذج من الأمثال التالية:

جملة إسمية: "أمانة الكلب لم تشفع بذلته"

جملة فعلية: "تسمع بالمعيدي خير من أن تراه"

الإستفهام: "احشفا وسوء كيلة"

التعجب: "ما أرخص الجمل لو لا الهرة"

الأمر: "أتبع الفرس لجامها والناقة زمامها"

النهي: "لا تعلم اليتيم البكاء"

٣- هذه الأساليب في معظمها تمتاز بالإيجاز، والإيجاز إعجاز كما يقولون فهي تمتاز بالقليل من اللفظ فكثير من المعني.

٤- الكثير من الأمثال تجمع بين جمال التعبير ودقة التصوير ، وكما قال ابن المقفع وإذا جعل الكلام مثلا كان آنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث.

ولعل السجع غير المتكلف هو أهم ما يميز أسلوب الأمثال فنجد لها جرسا جذابا.

"إن أخاك من آساك"

"حفظ اللسان راحة الإنسان"

"امرا وما اختار وإن أبى إلا النار".

وكذلك يأتي الجناس في المرتبة التالية بعد السجع في الجمال اللفظي فنجد أمثالا تحتوي على جناس تام مثل:

"الشرط أملك، عليك أم لك"

أما الجناس الناقص فيرد كثيرا، ويكسب الأمثال جمالا ويعطيها وقعا خاصا، مثل:

"أعط أخاك تمرة، فإن أبى فجمرة"

"إذا حان القضاء ضاق الفضاء"

"الإعتراف يهدم الإقتراف"

"حال الجريض دون القريض"

"الجار قبل الدار"

٥- كما هو في الجانب اللفظي من الأسلوب ينال حظا كبيرا في الأمثال فكذلك نرى في الجانب المعنوي من المحسنات البديعية فنجد الطباق والمقابلة في كثير من الأمثال وذلك لإبراز المعنى وتوضيحه وتزيين الأسلوب ولإقرار المراد في الإذهان. فهناك أمثال المقابلة مثل:

"أحرص على الموت توهب لك الحياة"

"الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر"

"القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود"

" يمسي على حر ويصبح على بارد"

٦- بلاغة الأمثال في القرآن الكريم

إن بلاغة الأمثال القرآنية هي بلاغة القرآن نفسها ونأتي بأمرين التي تتضح من خلالهما عن بلاغتها.

١- مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

٢- سمو المعاني وعلو المضامين.

الأمرالأول: مطابقة الكلام لمقتضى الحال

إنّ استقصاء جميع الأحوال الّتي يقع الكلام مطابقاً لها، راجع إلى علم المعاني، من علمي الفصاحة والبلاغة فذكروا مقتضيات الأحوال في أبواب الإسناد الخبري، والمسند إليه، والمسند، ومتعلقات الفعل، والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز، والإطناب والمساواة، فذكروا الأحوال الطارئة على الكلام ومقتضياتها، من ذكر المسند إليه وحذفه، وتنكيره، وتقديمه وتأخيره، وتوصيفه وتأكيده، إلى غير ذلك من الأحوال الطارئة على المسند إليه، وبشكل على المسند، ولكل مقام. كما أنّ لكل من الإيجاز والإطناب والمساواة مقام. ثم إنّ دراسة القرآن من حيث كونه مطابقاً للأحوال المقتضية، يحتاج إلى تفسير حافل، يفسّر القرآن من هذا الجانب، ولعلّ "الكشاف" أحسن ما كتب في هذا الموضوع، فقد ذكر الزمخشري فيه، النكات البلاغية، في تفسير الآيات، وبذلك أثبت للقرآن إعجازاً بيانياً خاصاً، وأنّ كل آية بل كلّ كلمة واردة موردها.

الأمر الثاني: سمو المعاني

إنّ التالي لآيات الذكر الحكيم إذا كان ممعناً في تلاوته يرى في كل سورة وآية عظة وتنبيهاً، وإعلاماً وتذكيراً، وترغيباً وترهيباً، وتشريعاً وتقنيناً وقصصاً،

وعبراً، وبراهين وحُجج، ترقى بروح الإنسان وتحلّق بها في سماء المعنويات. فهذه المعاني العالية السامية الدقيقة، إذا حَمَلَتْها ألفاظ فصيحة، وصِيغَتْ في نُظُم رصينة، وَرُصِّعْت بأُسلوب بديع، وأُلقيت على مقتضى الحال، بهرت العقول، وخَلَبَتْ النفوس، وسَلَّمَتْ بعجزها عن معارضته والإتيان بمثله.

وقد ركّز النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم في حديثه عن القرآن، على هذا الأمر، حيث قال: "وباطنه عميق". كما اعترف به عدوّه اللدود، الوليد بن المغيرة، حيث قال: "إنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لَمُغْدق".

إنّ النظرة الفاحصة، في آثار الكُتّاب والمؤلفين، تدفعنا إلى القول بأنّهم لا يخرجون عن طائفتين: طائفة تهتم بتزيين الألفاظ دون العناية بسمو المعنى.

وطائفة أُخرى تهتم بإبداع المعاني من دون عناية بتحسين اللفظ. وقلما يتّفق من يراعي كلا الأمرين، والجمع بينهما مشكل. لأنّ الألفاظ والجمّل الخلاّبة لا تطابق الموضوعية والواقعية. فالذين يرغبون في إفهام المعاني لا يفتشون عن الألفاظ والعبارات الخلاّبة. فالجمع بين الجمالين، رهن عبقرية ونُبوغ قادرين على تحمّل عبئهما.

والقرآن الكريم أَبْرَزُ نَموذّج للقسم الثالث. فألفاظه في منتهى العُذوبة، ومقاطع الآيات وفواصلها في غاية الأناقة، والأُسلوب في منتهى البداعة، وقد ضمّ إلى هذا الجمال الظاهر، عمقاً في المعنى، لا تجد له مثيلاً في زبر الأولين وكتب الآخرين.

الختام

مما قدمناها نجد أن الأمثال العربية تحتوي على نواح بلاغية كثيرة وتلعب دورها في تربية العقول الإنسانية نحو تقويم سلوكهم بتوجيه وتنبيه ودعوتهم نحو الإيمان بالله وجعله راسخا في قلوب المؤمنين. وكذلك تعمل نحو تقويم سلوك البشر لكي تستمر وتتوافق بما أمر. ومن حيث المضمون، تناولت الأمثال العربية، منها الأمثال القرآنية والأمثال النبوية التي تلقي الضوء على كثير من القضايا التي تحيط بالإنسان في هذه الحياة؛ كقضايا الكفر والإيمان، والإيمان والنفاق، والهدى والضلال، والعلم والجهل، والخير والشر، والغنى والفقر، والحياة الدنيا والحياة الآخرة، وغير ذلك من القضايا. فللأمثال العربية طريقة تربوية قائمة بذاتها بما تحويها من الأساليب البلاغية، توظف العقل والوجدان وتربيها حين تعمل علي تحقيق أهدافها الاعتقادية والسلوكية. وما علي المربي إلا أن يتعرف إلى هذه المراحل والخصائص، ليعطي كل واحدة منها حقها من الاهتمام.

المراجع

١- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٢م.

٢- التمثيل والمحاضرة، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٦١م.

٣- جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٦٤م.

٤- معجم الأمثال العربية، محمود إسماعيل صيني وآخرون، مكتبة لبنان، ١٩٩٢م.

٥- أشهر الأمثال، الشيخ طاهر الجزائري، دارالفكر المعاصر، لبنان، ١٩٩٥م.

٦- الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، تأليف: الشيخ أحمد الإسكندري والشيخ مصطفى عناني، دار المعارف بمصر.